المشرق

الاخ (فرا) غريفون وجبل لبنان

في القرن الخامس عشر

للاب هنري لامنس اليسوعي

(تتمّة هذه المقالة)

١٠

وسنة ١٤٦٠ كانت قد جرت المفاوضة في انشاء بطريركية في المشرق للاتين (١ . وعرض البعض ان تُسأم مقاليدها للاخ لويس دي بولونية الفرنسيسي الايطلياني. فحضر هذا الى رومة مع وفودٍ من قبل ملك طرابزون داود وشاه العجم وغيرهما من امراء الشرق فألحّوا كثيرًا في طلب تعيين هذا الاخ للبطريركية. فأبى عليهم ذلك بيوس الثاني وقد اتّضح فيما بعد انهُ اصاب في امتناعهِ عن اجابة سؤلهم فان سيرة الاخ المشار اليهِ في فرنسة وبلجكة والبندقية (٢ وبلاد بولونيـة العجم غدت موضعاً للريب والظنون. قال هفلهْ في معرض الكلام عنهُ (٣: «ليس لنا ما يدلّنا على ان هذا الاخ الغريب الطباع كان مُشعوذًا»

فسواء خطر لبولس الثاني ان يهتمّ بما أُهمل في عهد سلفهِ فاقام غريفون بطريركًا ام اكتفى فقط بسيامتهِ اسقفًا فني كلا الحالتين يمكننا ادراك ما رواهُ المؤرخون الفرنسيسكان عنهُ اعني سيامتهُ للاساقفة (٤

---

١) وليس لجميع الكاثوليك في الشرق كما زعم رُهرْبكر Rohrbacher, Histoire de l'Église XXII p. 269

٢) وفي هذه المدينة سمي بان سيم اسقفًا على غير رضًى من البابا (تاريخ البابوات لپاستور)

٣) تاريخ المجامع في الالمانية (Héfélé: *Conciliengeschichte* VIII, 142)

٤) قال وديغ: من بعد موت غريفون امر سيكستوس الرابع بان يرسل من ذاك الحين فصاعدًا الى لبنان راهب فرنسيسي لهُ ملْ التفويض بالاعناء من التأديبات الكنسيّة والنذورات ومنح الرُخصات ولكن غير حائز شرف الدرجة الاسقفيّة. فلا ندري ان كان غريفون وحدهُ

وذكر اصحاب ترجمته انهُ رأى بين الموارنة شابَّين استافتا ابصارهُ لما امتازا بهِ من الذكاء والفضيلة اسم احدهما يوحنا والآخر جبرائيل القلاعي الحفدي فنظمهما في سلك ابناء القديس فرنسيس . ثمَّ ارسلهما بعد ان ابرزا النذور الرهبانية الى البندقية فرومة لاتقان العلوم الكنسية . ولما عادا فيما بعد الى الشرق بصفة مرسلين خدما وطنهما خدماً جليلة فرُقّي الاخ جبرائيل الى الدرجة الاسقفية واقامهُ البطريرك سمعان الحدثي مطراناً للموارنة على قبرس (الدويهي ١٤٣ و٢٨٥ و٣٦٩) . اما الاخ يوحنا فما لبث بعد عودتهِ الى لبنان ان استأثرت بهِ المنيَّة (الدويهي ١٤٣ و٤٠٩)

وقد تمكن في تلك الايام بعض اليعاقبة من الاختلاط بالموارنة وبثّ اضاليلهم بين ظهرانيهم . لكنَّ الاخ جبرائيل كشف عن مساعيهم القناع ودفع عن المؤمنين شرّهم . فانهُ كان كاتباً ذا قريحة جوَّادة تنقاد لهُ البلاغة وتنصاع لخدمتهِ المعاني . وروى عنهُ الدويهي انهُ كتب ٤٦٥ مقالة او ميمرًا اكثرها لدحض اضاليل اليعاقبة . ولدينا بعض هذه الميامر محفوظة في مكتبة كليتنا وهي اشبه بالأزجال . ولا ريب ان قسمها الاكبر كان موجوداً في عهد الدويهي . فان هذا الحبر العلاَّمة اورد منها مقاطيع كثيرة في تاريخهِ (١ . ومما رواهُ نستدلُّ على ما لها من الاهمية لمعرفة تاريخ لبنان وشعب الموارنة قبل القرن الخامس عشر . ولنا الامل الكبير انَّ فضلاء هذه الطائفة يتحفونا عمَّا قليل بما عندهم منها اذ ليس لدينا عن تلك الازمنة اخبار وافية سواها

وفي سنة ١٤٩٤ كتب الاخ جبرائيل القلاعي الى البطريرك شمعون الحدثي يحرّضهُ على ان يطلب من رومة تثبيت انتخابه كما فعل جميع سلفائهِ من قبلهِ . وقد احببنا ان نذكر في هذا المقام بعضاً من رسالتهِ هذه نظراً الى أهميتها والى ما فيها من الالمام بتاريخ الموارنة (نقلناها بحرفها عن الدويهي) :

« لا يمكن لاحدٍ ان يخاصمني قائلاً ان الذي قلتهُ هو امرٌ محدث ابتدعتهُ من عند نفسي لان اكثر من خمسة عشر كتاباً من كتب البابارات بختومها ورصاصها تشهد لي وهي

مُنح هذا الشرف نظراً الى ما ازدان بهِ من الصفات او فاز بهِ غيرهُ . وهنا يجدر بنا ان نذكر ما رواهُ لويس دي سُوخم سنة ١٣٣٦ قال انهُ رأى اساقفة موارنة يسوسهم اساقفة لاتين . مع انهُ لم يبقَ في تلك الأيام اثر للاسقفيَّات اللاتينيَّة التي انشأها الصليبيُّون في سورية

١) راجع الصفحات ٣٣٩ و ٣٥٤ و ٣٦٨ و ٣٨١ و ٣٨٩ و ٣٩٧ و ٤١٧ الخ

الآن عندك في ديرك وفيها ايمان القدماء منكم من مائتين واثنتين وثمانين ستة فصاعداً. حتى ايمانكم انتم. وجود بخط ايديكم على يد فرا غريغون وفرا اسكندر وفرا سمعان وهي برومية. ومن قبلهم على يد فرا يوحنا رئيس بيروت وكيل وقاصد بطركم يوحنا الجاجي الى مجمع فلورنسة. ومن قبله على يد الراهب اوماريكو من قانون الاخوة الواعظين. ومن قبله على يد الكردينال غليلمو رسول بابا رومية الى شعبكم واليه اجتمع (١ روسا، كهنتكم وعلماء أمتكم وكان بطركم يدعى غريغوريوس من حالات وهناك وضعوا خطوط ايديهم كبيرهم وصغيرهم وحلفوا ان يكونوا تحت طاعة بابا رومية وثابتين في ايمانه. ومن قبله لمّا تولّى الملك غدفرادو على مدينة القدس وارسل رسل البشارة الى رومية الكبرى وصلت مع رُسله اذ ذاك رُسل البطريرك يوسف الجرجسي فرجموا اليه بالتاج والعصا. وفي ايام الملكة قونسطنسة اخذوا يدقون نواقيس نحاس على طريقة الكنيسة. وقبل ذلك ما كانوا يدقون للصلاة الّا الاعواد مثل الروم. ولما اشترت الملكة المذكورة كنائس القدس بثمانين الف دينار وهي القيامة وقبر مريم والطور وبيت لحم اعطت الموارنة مغارة الصليب ومذابح مختصّة في باقي كنائس القدس. واباحت لهم ان يقدّسوا على مذابح الافرنج وفي حللهم وبعثت فاحضرت لهم تثبيت ما انعمت به من قداسة البابا. وفي القدس حلفوا ووضعوا خطوط ايديهم ان يكونوا طائعين وثابتين في امانة رومية والباقي».

وما عدا ذلك فقد ذُكر عن الاخ جبرائيل انّهُ عرّب عدداً وافراً من الكتب المفيدة وألّف ايضاً التآليف الخطيرة في العربية. ودافع خير الدفاع عن ابناء طائفته. ولذا بلت لهُ المنزلة الرفيعة في نفوس الموارنة. ولم تزل تآليفهُ وتاريخ حياته محفوظة في المقام البطريركي(٢

١١

امّا الاخ غريغون فانهُ بعد ارتقائه الى الدرجة الاسقفية بقي على ما كان عليه قبلاً من الزهد والتقشفات مواظباً على كل واجبات العيشة النسكية لاسيما الفقر الوهباني سائرًا على مثال القديسين «يظلم نفسهُ ويعامل غيرهُ بغاية اللطف والمحبة (٣» ومع ما كان

١) ويروى: وعقد بحضرته مجمعاً

٢) هكذا روى الدويهي. وبودّنا لو يُنشر هذا التاريخ فنحصل منهُ على فوائد جمّة عن تاريخ تلك الازمنة ولعلّهُ لا يخلو من ذكر بعض اخبار غريغون ايضاً. راجع ما ذكر الدويهي عن جبرائيل القلاعي في تاريخهِ من ص ٤١٢ إلى ٤٢٥

٣) هذه العبارة هي للاب ارتُورُس الفرنسيسي.

عليه من الانقطاع الى الارشادات الخلاصية والتفرُّغ لواجبات مقامه لم يكن يغفل عن التأليف فصنَّف كتباً كثيرة بالسريانية ونقل الى هذه اللغة مؤلفات عديدة. وذهب المؤرخون الغربيُّون الى انهُ اعتنى ايضاً بترجمة بعض اسفار الكتاب المقدس. ولكن لمَّا كان لدى الموارنة من عهد بعيد ترجمة مثل هذه منقولة الى العربية فترجَّح انَّ ما اعتنى غريغون بتأليفه انما كان تفسيراً للتوراة لا التوراة عينها كما روى هؤلاء المؤرخون

ولسوء الطالع لم يبقَ من تآليف الاخ غريغون الاَّ اسما كتابين اولهما « مدائح مريم » (١ والثاني « وصف الاراضي المقدسة ». وقد اورد وَدِنغ من هذا الثاني اوَّل فاتحته. امَّا الدويهي فينسب الى غريغون تأليف سيَر في فتوح السلطان محمَّد الثاني للقسطنطينية. وحبَّذا لو امكن وجوده. وعسى الدهر ان يسعد بعض العلماء الذين انصبُّوا في عصرنا على درس الكتب السريانية الخطيَّة فيرشدهم الى اكتشاف هذه المآثر الجليلة والكنوز الدفينة

وقد كان النصف الثاني من القرن الخامس عشر عصر تقدُّم ونجاح لجبل لبنان في الماديَّات والعلميات. فكان السلام سائداً فيه بفضل المقدَّمين وحسن سياستهم. حتى اصبح المسيحيون من كل الطوائف يردون اليه من جميع انحاء سوريَّة (٢ . فكنت ترى في قرية حَدشيت وحدها عشرين كاهناً وفي بشرَّاي مذابح بعدد ايام السنة. امَّا التجارة فكانت اسواقها رائجة في جميع اصقاع لبنان

ولم تكن العلوم باقلَّ منها رواجاً ونجاحاً. فقد روى الدويهي انَّ عدد النسَّاخ الذين اتَّصلت اليه مؤلفاتهم يبلغون مائة وعشرة عدَّاً. وفي ذلك العهد شرع اللبنانيون في ابدال الخط الاسطرنجيلي بالاحرف السريانية المستديرة

وكان غريغون طعن في السنّ ولكن لم تفتر غيرتهُ ولم تضعف همَّتهُ. ولما رأى ما كانت عليه الديانة من النموّ والفلاح ثبت لديه انهُ لا يتعذَّر على اخرته (٣ القيام بمتابعة الاعمال التي باشرها في لبنان فعزم على السفر الى بلاد العجم. ولسائل ان يسأل فليت شعري ما حملهُ على الرحيل الى تلك الاقطار الشاسعة فيجيبنا. وَرَّخوهُ انَّ غيرتهُ على خلاص النفوس هي التي

---

١) De laudibus Mariæ . لسنا ندري ان كان هذا المؤلَّف كتب باللاتينية او بلغة شرقيَّة

٢) الدويهي ٤١٥ و ٤١٦ ٣) قال الدويهي والمؤرخون الفرنسيون انَّهُ ما عدا الاخ فرنسيس البرشلوني كان لغريغون معاونون في اعماله من رهبانيته

بعثتهُ الى هذه الرحلة . ولكن يا ترى أما كان الاولى به لو انتقل الى البلاد المجاورة للبنان فينال بها مبتغاه من أن يُقدم على تجشُّم الاتعاب والاخطار وقد بلغ سنًّا فيه يقبل الانسان على انجاز المشروعات التي باشرها ولا يسعى في اعمال جديدة غيرها ؟

فدونك ما رأينا من الاسباب الداعية لهُ بان يؤثر النجم على ما سواها . اخبر المؤرخون انهُ في اثناء القرن الخامس كانت جرت عدّة مخابرات بين رومة ودولة النجم غايتها نشر الكثلكة في تلك البلاد . وكان الاخ لويس دي بولونيه الذي سبق ذكرهُ دخل فارس واجتمع بشاه النجم . وهناك التقى بهِ الرحّالة البندقي امبروسيوس كُنتاريني في سنة ١٤٧٥ فذكر عن هذا الاخ أنهُ كان يدّعي برتبة البطريرك ويزعم انهُ سفير امراء برغندية (١

لقد سبق لنا القول ان لويس دي بولونية لم تكن تراح اليهِ النفوس في رومة فلا يبعد انَّ الاحبار الرومانيين عمدوا الى استبداله بآخر حائز على ملء الثقة في هذه المخابرات الخطيرة . ولم يكن احدٌ اولى من غريفون بهذه المهمّة . لانهُ ما كان اكتسبهُ من الخبرة بشؤون الشرق والمعرفة بموانئ هذه البلاد ولغاتها استوقف عليهِ ابصار الحبر الاعظم .

وعلى كلٍّ كيفما كانت المهمّة الموكولة اليهِ سواء عُدّت مخابرةً سياسيّة او رسالة دينيّة فمن الثابت انهُ ركب السفينة (٢ قاصدًا بلاد النجم وبمعيّتهِ الاخ فرنسيس البرشلوني . فاصابه في سفرته داء عيّاء اجبرهُ على النزول الى الماغوسة اهمّ ثغور قبرس وما لبث هناك ان ادركتهُ الوفاة في دير الفرنسيسيّين يُحفّ بهِ اخوانه بالوهبانية وذلك في ١٨ تموز سنة ١٤٧٥

اما الاخ فرنسيس البرشلوني فبادر الى رومة ونعى الى سيكستوس الرابع المرسل العظيم فبعث البابا (وكان هو ايضاً من رهبانية مار فرنسيس) الى رئيس الفرنسيسيّين العامّ ان يوفد من رهبانه الى لبنان مَن يعهد فيهِ اللياقة ليكون خلفًا لغريفون في منصبه الخطير . ولكن لم يتمّ هذا الامر عاجلًا كما روى المؤرّخون ولا يسمح لنا موضوعنا ان نتعرّض لهذه الامور

وحسبنا ان نقول انَّ ذكر غريفون لم يزل محفوظاً بكل اكرام بين ابناء رهبانيته . فقد ورد اسمهُ في « تراجم رئي الفرنسيسيّين » الاب هوبر وفي جملة « اخبار القديسين

---

١) تاريخ المجامع Héfélé: VIII, 142 — 144

٢) كذا روى المؤرخون . ولا نعلم ما حمل غريفون على ركوب البحر لينتقل من لبنان الى النجم . فهل كان في نيتهِ الشخوص اولًا الى رومة ام النزول في ثغر اسكندرونة والتوجه من هناك الى النجم . وهذه الخطّة لا يزال يجري عليها كثيرون في ايامنا

الفرنسيسيين » للاب ارتوروس وفيه يلقبهُ المؤلف بالطوباوي (١

وما كان الموارنة ليفسوه فان البطريرك بطرس سمعان في رسالة بعث بها في ٨ اذار سنة ١٥١٤ الى لاون العاشر يطلب من هذا البابا ان يُرسل اليهِ نوّابًا كغريفون (٢ الذي لا يزال ذكرهُ حيًّا في قلوب الموارنة يمثل لهم صورة المُرسَل المكمَّل . وهذا الكلام افضل ما يمكن قوله في مدح غريفون . ونحن نقف عنده وكفى بهِ وصفًا لمن كان للدين بطلًا ولمحبّة النفوس شهيدًا

داء السلّ وانتشارهُ في سوريّة

للدكتور حبيب افندي الدرعوني

(تابع لما سبق)

اسباب السل العامّة

قد بيّنا في ما سبق الاسباب الخصوصيّة التي من دأبها ان تنشر عدوى السلّ في اصقاعنا السورية . اما الاسباب العموميّة التي تعمّ كلّ بلدٍ وكل زمان فمنها ما لا حيلة في استدراكهِ مثل الامراض الحادّة التي اخصُّها الشهقة والنزلة الصدريّة والحصبة وبعض الامراض المزمنة كالبول السكّري وغيرهِ . فان تلك الامراض تهيّئ الاجسام التي تعتريها الى قبول السل كما تفعل كل الاسباب المضعفة سواء كانت باطنة في الجسم او خارجة عنهُ . وقد يكون للمشروبات الروحية في البدن من هذا القبيل فعل سيّئ اي اما انها تُضعف الجسم وتُسمّمهُ فتجعله عرضةً للسلّ او انها تستهلك دراهم مُعاقرها في سبيل مشتراها فلم يبق لديهِ ما يلزم لقوام صحّتهِ من التغذية الكافية .

اما الارث فقد كان سابقًا يُعدّ من اوّل اسباب انتشار السلّ ويعزى اليهِ كلُّ شرّهِ . وقد افصح اليوم الحقُّ عن محضهِ فصرنا نعتبرهُ مثل عاملٍ مهيّئٍ يجعل الذرّية مستعدّةً لنوال السلّ نظرًا لما يورثهُ الولد عن والديه من ضعف الاعضاء او فسادٍ في الدم غير انهُ اذا عولج بالخوشاشة ومعيشة الفلاة فيمكنهُ التخلّص من طوارئ ذاك الداء . ولا ريب عندنا انّ حوادث كثيرة تنسب عادةً للارث لا يكون في غالب الاحيان مُحدثها سوى العدوى .

١) لم اجد ذكرًا لغريفون في الكتب القديمة الكاملة لاخبار القديسين البلجيكيين التي راجعتها في مكتبة البولنديستين . مع انهم يذكرون ما عدا القديسين والطوباويين كلّ من ماتوا في رائحة القداسة

٢) راجع تاريخ الجامع (Héfélé, VIII, 682) وتاريخ ريتلدي سنة ١٥١٤ العدد ٨٧